الخلاصة

قد مرّ بالقارىء الكريم في الصفحات الماضية من هذه المقالة انهُ ليس بين الطرق العلاجيّة الّتي اتصل اليها الطب حتى الآن ما يدفع الموت عن المصاب بالتيفويد دفعاً اكيداً فقد ظهر لهُ مضارٌّ خفض الحرارة (antipyrèse) بالادوية من الكينين القديمة الى الانتيبرين الجديد وتبرهن لديهِ بالحجج العلميّة ان التطهير وهميٌّ والحامض الفنيك شرٌّ والمراقبة امٌّ عظيم

وعلى هاتيك الانقاض الهاوية استوت « الهيدروترابيا » القديمة في تاريخ البشريّة فأثبتت انها لم تمت قط ولا دُمرت امام هجمة السنين . بيدَ ان القول بكونها غاية ما سيبلغهُ الاقراباذين في المستقبل يتحرز منهُ العاقل ولا يقطع بهِ حكيم ولكن النتائج الخارجة من الابحاث والقضايا المثبتة بالتقاويم تقول لنا على لسان « رينوا »: ايها الاطباء دونكم هذه الطريقة انّ لكم فيها الفوز الساطع والظفر الجليل فأجيروها كما اجارها غيركم من قبلكم وآمنوا بها ودافعوا عنها ولا تبدلوها بغيرها حتى تقوم عليهِ بيّنةُ الاختبار وتنطق لهُ ارقام التقويم

الشجاعة عند العرب

لحضرة الكاتب البليغ محمد افندي المويلحي

الشجاعة هي الثبات عند نزول المكروه والصبر عند الصدمة الاولى وتغلُّب القوّة الروحانيّة على القوة الجسمانيّة ومناجاة النفس عند اضطرابها بالسكون . ونفس الشجاع والجبان على طريقة واحدة فيما يدهمها عند الوهلة الاولى ثم يختلفان فالجبان يركب نفرتهُ والشجاع يدفعها فتثبت. وقد ذكر ذلك فارس الفرسان عمرو بن معدي كرب وبيّنهُ في قولهِ

فجاشت اليَّ النفس اول مرة فردَدتُ على مكروهها فاستقرّتِ

وافصح عنهُ بطل الشجعان قطري بن الفجأة في ابياتهِ الّتي اولها

اقول لها وقد طارت شعاعاً من الابطال ويحكِ لن تراعي

وقال فارس آخر

اقول لها اذا جشأت وجاشت مكانكِ تحمدي او تستريحي

وألمّ بهذا ايضاً صاحب الزنج بالبصرة حيث قال عن نفسهِ

واذا تنازعني اقول لها قري موتٌ يريحكِ او صعود المنبرِ

فاذا اردت بالشجاعة الاقدام في الحرب والصبر في مواقف القتال فهي من اعظم الفضائل قدرًا لانها تهاونٌ بالحياة وجودٌ بالنفس واحتقار للموت وقد جبلت النفوس على حب الحياة والضن بالنفس وكره الموت واستعظام وقعه

والعيش عيشان عيش شدة وعيش ليان فاذا اقدم الفارس على الحرب من ضيق العيش يطلب منها رزقًا او يدفع نازلة او يرفع هوانًا او ما شابه ذلك من حاجيات الحياة وضرورة المعايش التي لا تصفو بدونها ولا يسوغ العيش بسواها كان مجرد وقوفه امام الموت ومقابلته له وتحديق النظر فيه شجاعة عظيمة . واذا رغبت في احصاء عدد من شجعان هذه الطبقة عند العرب اعياك العدّ واعجزك الحصر فانهم ربما فاقوا بقية الامم سواهم حبًا للقتال وغرامًا بالحرب واقدامًا في الثغور

اما اذا كان الانسان في لين من حياته ورغد في عيشه وعزة في دهره ووفرة في ماله وجاه في دنياه فاقدم على الموت متروّيًا فيه قاصدًا ومتدبرًا عازمًا لطلب امر هو من زوائد الحياة ان لم يحاوله لم ينقصه شيء وان سكت عنه لم يضره نقصانه كانت شجاعته ارقى درجة وابلغ علوًا من تلك الطبقة : وقد قال عبد الملك بن مروان لجلسائه يومًا مَن اشجع الناس . فقالوا فلان وفلان وعدوا له رجالاً من شجعان العرب . فقال عبد الملك بل رجل جمع بين سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وام الحميد بنت عبد الله وُلِيَ العراقين خمس سنين فاصاب كذا وكذا الف درهم وأُعطي الامان على ذلك كله وعلى ولايته وماله فأبى وقال مثلي لا ينصرف عن هذا المكان مكان الطعان الاّ غالبًا او مقتولاً ومشى بسيفه الى الموت حتى قُتل — ذاك مصعب بن الزبير

وربما كان الامل في النجاة مع الظفر بالمطلوب والفوز بالغلبة مما يعين النفس ويقويها على موقف الاقدام لدى الحتوف . وكم فاز بطيب الحياة من كثر اقدامه على كريهة الموت وطالما نجا من المنيّة من لم يهب اسبابها وخلص من دائرة المنون من طال وقوفه فيها . هذا خالد بن الوليد يقول وهو يموت على فراشه لم يبقَ في جسدي موضع اصبع الاّ وفيه طعنة ثم هاانذا اموت على فراشي كما يموت العَير فلا نامت اعين الجبناء . وذاك قطري بن الفجاءة يقول لاصحابه تزيينًا للاقدام

لا يركنن احدٌ الى الاحجام يوم الوغى متخوفًا لحمام
فلقد أراني للرماح دريئة (١) من عن يميني مرة وامامي

(١) الدريئة الحلقة التي يتعلم عليها الطعن

حتى خضبتُ بما تحدَّر من دمي اكناف سرجي او عنانَ لجامي
ثم انصرفتُ وقد أُصبتُ ولم أُصبْ جذع[٣] البصيرة قارح[٣] الاقدام

فاذا اقدم الانسان على الموت مع صفو الحياة الذي قدمنا بيانهُ وعدم الحاجة الى وقوف ذلك الموقف الهائل ثم كان هو لا يؤمل ظفرًا ولا يرجو نجاة ولا ينتظر غلبة بل كان متيقنًا بعدم السلامة يقف وما في الموت شكٌّ لواقفٍ كانت درجتهُ في الشجاعة اعظم واعظم

واشجع من مصعب اخوهُ عبدالله بن الزبير حيث تفرَّق عنهُ اصحابهُ وخذلوهُ واشتد حصارٌ عليهِ في خلافة عبد الملك فجاءهُ عروة اخوهُ وقال لهُ ان عبد الملك يعطيك الامان على ما احدثت انت ومن معك وان تنزل اي البلاد شئت ولك بذلك عهد الله وميثاقهُ . فأبى عبدالله قبول ذلك . ودخل على امهِ اسماء بنت ابي بكر فقال ياامهاه خذلني الناس حتى ولدي واهلي ولم يبقَ معي الا اليسير ممن ليس عندهُ من الدفع اكثر من صبر ساعة . والقوم يعطونني ما اردت من الدنيا فما رأيك . فقالت انت يابني اعلم بنفسك ان كنت تعلم انك على حق والىٰ تدعو فامضِ لهُ فقد قُتل عليهِ اصحابك فلا تمكن من رقبتك يلاعب بها غلمان بني امية . وان كنت انما اردت الدنيا فبئس العبد انت اهلكتَ نفسك واهلكتَ من قُتل معك . وان قلتَ قد كنتُ على حقٍّ فلمَّا وهن اصحابي وهنتُ وضعفتُ فليس هذا فعل الاحرار وكم خلودك في الدنيا . القتل احسن . فدنا عبدالله فقبل رأسها وقال هذا والله رأيي الذي قمت بهِ داعيًا يومي هذا وما ركنتُ الى الدنيا ولا احببت الحياة فيها ولكني احببت ان اعلم رأيك فتزيديني بصيرة مع بصيرتي . فانظري ياامهاه فاني مقتول فلا يشتدَّ حزنك وسلمي الامر لله فان ابنك لم يتعمَّد اتيان منكر ولا عملاً بفاحشة ولم يجُر في حكم ولم يغدر في امان ولم يتعمَّد ظلم مسلم ولا معاهد . ولم يبلغني ظلم من عمالي فرضيت بهِ ولم يكن شيء آثرَ عندي من رضاء ربي . اللهم اني لا اقول هذا تزكيةً مني لنفسي انت اعلم بي . ولكنني اقولهُ تعزية لامي لتسلو عني . قالت امهُ اني لارجو من الله ان يكون عزائي فيك حسنًا ان تقدمتني . اخرج حتى انظر الى ما يصير اليهِ امرك . ثم قالت اللهمَّ اني سلمتُ لامرك فيهِ ورضيت بما قضيتَ فأثبني في عبدالله ثواب الصابرين الشاكرين

فاقدام عبدالله هذا على الموت وهو على يقين ثابت من تجرُّع كأسهِ ثابت الجنان

(٣) الجذع من الخيل الذي لا يحتاج الى رياضة (٣) بالغ

رابط الجاش ساكن الخاطر مثلوج الفواد مشروح الصدر طلق المحيا باسم الثغر للقائهِ كانما هو يقابل حبيباً ويواصل النقداقصى درجات الشجاعة في هذا الباب ومنتهى غاياتها

الا ان الموت مع ذلك راحة من ألم ومنجاة من شدة وتخلص من عناء . واذا كان فقد الالم يوجب لذةً فالموت ابو اللذائذ لان فيهِ فقد جميع الآلام وهو امر واقع لا بدَّ منهُ ولا مناص عنهُ وفضل المقدم عليهِ اقدام عبدالله هو انهُ تحيَّل الى الوقوع في امر لا مفرَّ من الوقوع فيهِ . ولقد نرى الرجل الجبان الخائر يشتدُّ بهِ ألم من آلام الحياة فلا يقوى على احتمالهِ فيعمد الى قتل نفسهِ للخلاص منهُ . فالجلد على تحمل الآلام اذاً اكبر شجاعة واعظم جرأة وثباتاً من الاقدام على الحمام . ومن كان يقابل الآلام بالصبر عليها وعدم الاكتراث لها ويجلد على مقاومة تأثيرها ويتحملها بقوة النفس وحسن القبول بلا جزع ولا فزع ولا وهل ولا هلع ولا ضعف ولا وهن حتى كانما آتيهِ بالمكروه آتيهِ يضاحكهُ ويجاذبهُ كان اشجع الشجعان من كل الطبقات

واشجع من عبدالله بن الزبير أُمهُ حيث كانت تدفعهُ الى القتل الثابت وتحثهُ على المسير نحوهُ وتزيّنهُ لهُ وتهونهُ عليهِ وهو فلذة كبدها ودم مهجتها . وقد ذكر لها ما عرضهُ القوم عليهِ من المصالحة ورغد العيش فنهتهُ عن القبول وقالت لهُ لا تمرتنَّ الاَّ كريماً . فقال لها اني اخاف ان قتلت ان أُصلب او يمثل بي قالت لهُ يابني ان الشاة بعد الذبح لا تحسُّ بالسلخ

ولو كان عبدالله جبان القلب جزوعاً تخشى منهُ التأخر والتقهقر لقلنا انها كانت تفعل ذلك بهِ لتقوي من نفسهِ وتشد من عزمهِ فكيف وهو الشجاع الحديد القلب منذ نعومة اظفارهِ لم تستشعر منهُ ضعفاً ولا آنست خوراً ولم ترَ منهُ الاَّ البأس والاقدام في كل اطوارهِ . روي انهُ كان يلعب وهو صبي ذات يوم مع الصبيان فمرَّ رجل فصاح عليهم ففروا ومشى عبدالله القهقرى ثم قال ياصبيان اجعلوني اميركم وشدُّوا بنا عليهِ . ومرَّ بهِ عمر بن الخطاب الذي كان يرتعش من هيبتهِ صناديد الرجال وفحول الشجعان فرآهُ مع الصبيان ففروا ووقف فقال لهُ عمر لِمَ لم تفرَّ مع اصحابك قال لهُ لم اجرم فاخافك ولم تكن الطريق ضيقة فاوسع لك . وحدَّث عمر بن قيس عن أُمهِ قالت . دخلت على عبدالله ابن الزبير فاذا هو قائم يصلي فسقطت حية من البيت على ابنهِ هاشم فطوقت على بطنهِ فصاح اهل البيت الحية الحية ولم يزالوا بها حتى قتلوها وعبدالله قائم يصلي ما التفت ولا عجل . وقال هشام بن عروة والله لقد رأيت عبدالله يُرمى بالمنجنيق فلا يلتفت ولا يوعد

صوتهُ وربما مرت الشظيَّة منهُ قريباً من نحرهِ

فمن كانت هذهِ خليقتهُ وغريزتهُ كان المنتظر من امهِ ان تكفكف من غربهِ وتنهنه من عزمهِ وتأخذ معهُ باسباب الحذر والحيطة لنفسهِ ولكنها كانت لا تألو جهدًا في تزيين المخاطر لهُ وكشف صدرهِ لمقابلة سهام الحتوف . وكانت تزفهُ الى لقاء المنايا يوم قتلهِ لتعيش بشكلهِ وتقضي حياتها بألم فراقهِ كما يزف سواها ابنهُ في يوم عرسهِ . ودخل عليها في اليوم الذي قتل فيهِ وعليهِ الدرع والمغفر وهي مكنوفة البصر فوقف فسلم ثم دنا فتناول يدها فقبلها فقالت هذا وداع . قال نعم اني جئت مودعًا واني لأرى ان هذا اليوم آخر يوم من الدنيا يمرُّ بي واعلمي اني ان قتلتُ فانما انا لحم ودم لا يضرهُ ما صُنع بهِ . فقالت صدقت يابني اتم على بصيرتك ولا تمكن ابن ابي عقيل منك وادنُ مني اودعك . فدنا منها فقبلها وعانقها . فقالت حيث مست الدرع ما هذا صنعُ من يريد ما تريد . فقال ما لبستها الاَّ لأشد منكِ فقالت انها لا تشدّ مني . فنزعها وخرج الى القتال وعليهِ جبة خزّ

اللهمّ ان هذا ثبات نفس وقوة قلب من هذهِ الأُم تبهر العقول وتفوق الطاقة البشريَّة . ومن قابل آلام الحياة بمثل هذا العزم وهذا الجلَد وسعى في جلبها لنفسهِ كانما هو يتلذذ بها ويتنعم كانت شجاعة بسطام بن قيس الشيباني وعتيبة بن الحارث اليربوعي وعمرو بن معدي كرب الزبيدي وعامر بن الطفيل العامري وصبرهم في مواقف القتال في جانب ذلك الثبات نوعًا من اللعب وضربًا من الهذيان هولاء يتعرضون للموت براحتهِ وتلك تقضي الحياة بآلامها فما اعظم الفرق وابعد الشكل

وممن رزقهم الله فضيلة الشجاعة في احتمال آلام الحياة آمنين مطمئنين عروة بن الزبير ايضًا كانما اختص الله بيت الزبير باصناف الشجاعة كلها وقد اصابتهُ الأكلة في رجلهِ وهو بالشام عند الوليد بن عبد الملك فاشاروا عليهِ بقطعها وقيل لهُ قبل ان يقطعها نسقيك المرقد حتى لا تجد معهُ ألمًا (وكانهُ في مقام المورفين في هذا العصر) فقال ما احب ان اسلب عضوًا من اعضائي وانا لا اجد ألم ذلك . ودخل عليهِ قوم انكرهم فقال ما هؤلاء . قالوا يمسكونك فان الألم ربما عزب معهُ الصبر قال ارجو ان اكفيكم ذلك من نفسي . فقطعت رجلهُ بالسكين حتى اذا بلغ العظم وضع عليها المنشار فقطعت ثم انهُ أغلى الزيت في مغارف الحديد فحسم بهِ الدم . كل هذا وهو لم يتحرك ولم يقبض وجههُ . وكان ذلك في مجلس الوليد بن عبد الملك والوليد مشغول عنهُ بمن يحدثهُ ولم يشعر ان رجل

عروة قُطعت حتى كويت نشم رائحة الكي. ولما انتهى العمل ورأى عروة القدم في ايديهم دعا بها واخذ يقلبها ويلعب بها في يدهِ باسماً (١)

وسقط مُحَمَّد ابنهُ بعد ذلك من سطح في اصطبل دواب الوليد فضربتهُ بقوائمها حتى قتلتهُ فأتى عروة رجل يعزيهِ فقال لهُ عروة قبل ان يعلم الخبر ان كنت تعزيني برجلي فقد احتسبتها . فقال بل اعزيك بمحمد . قال وما لهُ . فخبرهُ بشأنهِ فما زاد على ان قال اللهمَّ اخذت عضواً وتركت اعضاء واخذت ابناً وتركت ابناء فانك ان كنت اخذت لقد ابقيت وان كنت ابتليت لقد عافيت

وممَّن يدخل في هذهِ الطبقة من الثبات عند نزول المكروه وحلول الالم قيس بن عاصم المنقري حيث قتل ابنُ اخ لهُ بعض بنيهِ فأُتي بالقاتل مكتوفاً يقاد اليهِ . فقال ذعرتم الفتى ثم اقبل عليهِ فقال يابنيَّ بئس ما فعلت نقصت عددك واوهنت عضدك واشمت عدوك واسأت بقومك . ثم قال خلوا سبيلهُ واحملوا الى ام المقتول ديتهُ لانها غريبة . ثم انصرف القاتل وما حلَّ قيس حبوتهُ ولا تغير وجههُ

ويدخل معهُ الاحنف بن قيس ذهبت عينهُ فلم يرَ ذلك شيئاً يذكر فعاش اربعين سنة لا يعلم احد انهُ لا يبصر بها

وهذا الذي تراهُ من هذهِ الشجاعة وقوة النفس على تحمل آلام الحياة هو فن من فنون الحكمة وضعت فيهِ الكتب واشتغل بهِ الفلاسفة الاقدمون من اليونانيين والرومانيين وصار مذهباً مشهوراً ابوهُ سقراط ومؤسسهُ بعدهُ الحكيم زينون وهم يسمونهُ مذهب « الستويسزم (٢) » (Stoïsisme) ولاصحاب هذا المذهب افعال ومآثر واخبار مدونة في كتبهم وقد احرزوا هذهِ الفضيلة بكثرة التمرُّن ورياضة النفس بقوة العلم الَّتي كانت عند العرب بقوة الفطرة. وربما جئنا على شيء من اقوالهم وافعالهم فيما يأتي من الفرص ان شاء الله

---

(١) (المقتطف) نرجح ان عروة بن الزبير هذا كان لا يشعر بالالم مثل الرجل الاميركي الذي ذكرناهُ في المقتطف منذ شهرين في الكلام على زوال الالم لا ان شجاعتهُ كانت تهون عليهِ احتمال الالم الى هذا الحد. وقد روي عن كثيرين انهم كانت تقطع اعضاؤهم فلا يشعرون بالم لأن اعصاب الشعور بالالم ضعيفة فيهم او مأونة او قليلة الشعور

(٢) واصحابهُ الفلاسفة الرواقيون من ستوا اي رواق حيث كان الفيلسوف زينون يعلم تلامذتهُ